الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمَّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابٌ من تبرأ من نسبه

١٣٦ – عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا: ((كَفَر من تبرأ من نسبه وإن دقَّ، أو ادّعى نسبًا لا يُعرف)).

١٣٧ – وللطبراني معناه من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

١٣٨ – ولأبي داود وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((أيّما امرأة أدخلت على قومٍ من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يُدخلها جنَّته، وأيّما والدٍ جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الخلائق من الأولين والآخرين)).

****

قال رحمه الله تعالى: «**بابٌ مَن تبرَّأ من نسبه**» ؛ أي أنَّ هذا من الكبائر ، من كبائر الذُّنوب وعظائم الآثام التَّبرُّؤ من النَّسب. والتَّبرُّؤ من النَّسب: أن يخرج الإنسان من نسبه –آبائه وأجداده– وينسب نفسه إمَّا إلى أسماءٍ معروفة، أو لشيْءٍ لا يُعرَف، مثل ما جاء قال: ((أو ادَّعى نسبًا لا يُعْرَف)) ، فهذا من كبائر الذُّنوب وعظائم الآثام.

أورد حديث عمرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جدِّه مرفوعًا: ((**كَفَر مَن تبرَّأ من نسبه وإن دقّ، أو ادَّعى**))أي لنفسه ((**نسبًا لا يُعْرَف**)) ؛ كأن يُرَكِّبَ لنفسه نسبًا هكذا ينشئه، وغرضه من ذلك أن يتبرَّأ من نسبه، وهذا من عظائم الآثام

- أوَّلاً: من جهة أنَّه كَذِبٌ على الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّه خلقه الله عزَّ وجلَّ وأوْجده فلان ابن فلان، فتبرَّأ من ذلك، وكذب على الله سبحانه وتعالى بأن نسب نفسه إلى غير نسبه الّذي خلقه الله عليه وأوجده عليه سبحانه وتعالى.
- إضافةً إلى ما يترتَّب على ذلك من اختلاطٍ في الأنساب ووقوع في محاذير عظيمة تتعلَّق بالمحارم، وما يترتَّب على ذلك من أحكامٍ معروفة.

فالشاهد أنَّ هذا من عظائم الذُّنوب وكبائر الآثام.

وأورد رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((**أيَّما امرأةٍ أدخلت على قومٍ مَن ليس منهم فليست من اللهِ في شيْء ولن يُدخِلَها الجنَّة**)) وهذا أيضًا من عظائم الذُّنوب وكبائر الآثام.

ومعنى ((**أدخلت على قوم مَن ليس منهم**)) أي: بأن تكون وقعت في فاحشة الزِّنا وحملت بهذا الوقوع في الفاحشة بماءٍ غير ماء زوجها وبعلها فتُدْخِل على زوجها وأهله وقومه مَن ليس منهم. وفي هذا من الوعيد ما رأينا .

قال: ((**فليست من اللَّه في شيْء، ولن يُدخلها الجنَّة**)) ولا يُقال في مثل ذلك إلاّ ما هو في عظائم الذُّنوب وكبائر الآثام.

((**وأيَّما والدٌ جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب اللَّه عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الخلائق من الأوَّلين والآخرين**)) ؛ قوله «وهو ينظر إليه» قيل: أي الوالد ينظر إلى ولده ويعرف أنَّه ولده ومتحقِّقٌ أنَّه ولده ثمّ يتبرَّأ منه. وقيل: «ينظر إليه» أي الولد ينظر إلى والده نظرةَ احتياجٍ وحاجةٍ لرحمةِ الوالد وحنوِّه وإبقائه لهذا الولد فلا يبالي بذلك والده ويتبرَّأ منه ؛ فهذا من عظائم الذُّنوب.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ من ادّعى ما ليس له ، ومن إذا خاصم فجر

١٣٩ – فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين وروي عن ابن مسعود وعمر رضي الله عنهما: ((من قال أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال هو في الجنّة فهو في النار، ومن قال هو عالم فهو جاهل)) .

١٤٠ – ولهما عن أبي ذرّ رضي الله عنه مرفوعًا: ((ليس من رجل ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادّعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار، ومن رمى مسلمًا بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)).

****

قال رحمه اللَّه تعالى: «**بابٌ مَن ادَّعى ما ليس له ومَن إذا خاصم فجر**» ؛ مَن ادَّعى ما ليس له: أي ما ليس من وصفه، كأن يدَّعي لنفسه علمًا وهو ليس بعالِم، أو يدَّعي لنفسه إيمانًا وهو ليس بمؤمن، أو يدَّعي لنفسه فضلاً وشرفًا وخُلُقًا وكرمًا وهو ليس كذلك، متشبِّعًا بما لم يُعطَ، مُحِبًّا لأن يُحْمَد بما ليس فيه، وأن يُثنى عليه بما ليس من أوصافه. وهذا من عظائم الآثام؛ أن يتشبَّع الإنسان بما لم يُعطَ، وأن يحبَّ أن يُحمَد بما لم يفعل، ويدَّعي لنفسه من الأوصاف ما ليست فيه. قال: «**بابٌ مَن ادَّعى ما ليس له**» : ما ليس له من أوصافٍ أو أعمالٍ أو أخلاقٍ أو نحو ذلك.

«**ومَن إذا خاصم فجر**» وهذا يظهر واللَّه أعلم مترتِّب على ما قبله من ادِّعاءِ ما ليس له.

قال: **فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما ورُوي عن ابن مسعودٍ وعمر رضي الله عنهما ((مَن قال أنا مؤمن فهو كافر، ومَن قال هو في الجنَّة فهو في النَّار، ومَن قال هو عالِم فهو جاهل))** وجميع هذه الأوصاف الثَّلاثة قال: «أنا مؤمن»، أو قال: «هو في الجنَّة»، أو قال: «هو عالِم» كلُّها محمولةٌ على ادِّعاء المرء لنفسه ذلك ، تزكيةً لنفسه وطلبًا لمحمَدةِ النَّاس وثنائهم دون عنايةٍ منه واهتمامٍ بالعمل وتحقيق الإخلاص لله عزَّ وجلّ والمتابعة للرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، يدَّعي ذلك ادِّعاءً.

ومن المعلوم: أنَّ كلمة «مؤمن»، أو «أنا مؤمن» من أعظم ما يكون تزكيةً للنَّفس. ولهذا من لطائف ما ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتب العقائد وأصول الإيمان، عن رجل من الأعراب قيل له: أَمؤمنٌ أنت؟ قال: «أُزَكّي نفسي؟!»، أدرك وهو أعرابي أنَّ هذه الكلمة من أعظم ما يكون تزكيةً للنَّفس؛ لأنَّ الإيمان يشمل الدِّين كلَّه، ومَن ذا الّذي يزعم لنفسه أنَّه كمَّل الدِّين وتمَّمه!! والإيمان النَّافع عند الله سبحانه وتعالى هو الإيمان المتَقَبَّل الّذي تقبَّله الله من العامل، ومَن الّذي يجزم أنَّ عمله مُتَقَبَّل؟! والله يقول عن المؤمنين الكُمَّل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، أي: قلوبهم خائفة من أن تُرَدّ عليهم أعمالهم ولا تُقْبَل منهم طاعاتهم، فلا يُزَكّي المرء نفسه، قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ، لكنَّ المؤمن يُجاهد نفسه على تحقيق التَّقوى وتكميل نفسه، ثمّ هو مع هذه المجاهدة والاجتهاد في تكميل نفسه لا يزال يحسُّ أنَّه مُقَصِّر ومُفَرِّط ، مثل ما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «إنَّ المؤمن جمع بين إحسانٍ ومخافة، والمنافق جمع بين إساءةٍ وأمن»؛ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة؛ إحسان في العمل ومخافة ألاّ يُقْبَلَ العمل أو أن يُرَدّ على العامل، والمنافق يسيء في العمل، ويرى أنَّه محسن وأنَّ عمله من أحسن الأعمال.

ولهذا الواجب على المؤمن أن يتجنَّب تزكيته لنفسه، بل ينبغي أن يرى نفسَه دائمًا أنَّه لا يزال مقصِّر ، إن كان الأمر في باب الإيمان يرى نفسه لا يزال مقصِّرًا ، إن كان في باب العلم يرى نفسه لا يزال مقصِّرًا وبحاجةٍ إلى مزيدٍ ومزيدٍ من التَّحصيل والتَّعلُّم، لا يزكّي نفسه، لا يمدح نفسه. أمّا أن يدَّعي لنفسه هذه الدَّعاوى فهذه ليست من علامات الخير، كأن يقول عن نفسه: "أنا من أولياء الله، وأنا من المتَّقين"، أو يقول: "أنا من أهل الجنَّة" أو نحو ذلك. هذه من العظائم ومن أخطر ما يكون؛ لأنَّ هذه تزكية للنّفس وإعلاء من شأنها، وهو ناشئ عن غرور الإنسان وعُجبه بنفسه واغتراره بقليلٍ من عمله، وفي النَّاس مَن هو أحسن منه عملاً ويبكي من خشية الله سبحانه وتعالى، ولا يزال خائفًا أن تُرَدَّ عليه أعماله. ابن عمر رضي الله عنه الصَّحابيُّ الجليل يقول: «لو أعلم أنَّها تُقُبِّلَت منّي سجدة واحدة لكان خيرًا لي من الدُّنيا وما فيها»، وهكذا كان شأن أولياء الله الصّادقين وحزب الله سبحانه وتعالى المقَرَّبين، بخلاف أهل الدَّعاوى.

وتعظُم المصيبة عندما تكون الدَّعوى مقصودًا بها توريط النّاس وأكل أموالهم بالباطل، كما هو حاصل عند أئمَّة الطُّرق الباطلة ممَّن يدَّعي أشياخهم وكبراؤهم أنَّهم من الأولياء وأنَّهم كذا وأنَّهم كذا من الأوصاف، والمراد من ذلك أكل أموال هؤلاء الأتباع بالباطل، والتَّعالي على هؤلاء الأتباع، وتعظيم النَّفس بين هؤلاء الأتباع مع تضييع العمل، حتى إنَّ بعضهم لا يُعْرَف بمحافظةٍ على الصَّلاةِ في الجماعة، ويُعْرَف عنه تعاطي بعض الأمور المنكَرَة المحرَّمة، ولا يزال بين أتباعه يدَّعي أنَّه من الأولياء ويدَّعي ويدَّعي من الدَّعاوى الفجَّة الباطلة، وهذا من أخطر ما يكون جنايةً على النَّفس وعلى الآخرين.

قال: **ولهما عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: ((ليس من رجلٍ ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه إلاّ كَفَر))** ؛ وهذا مرَّ معنا.

((ومَن ادَّعى ما ليس له فليس منَّا ، ولْيتبوَّأ مقعده من النَّار)) وأيضًا مرَّ معنا.

((ومَن رمى مسلمًا بالكفر، أو قال: يا عدوَّ اللَّه، وليس كذلك إلاّ حار عليه)) أي: إلاّ رجع عليه ما ادَّعاه في غيره إن لم يكن ذلك أهلاً لما قال.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ الدَّعوى في العلم افتخارًا

١٤١ – عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: ((يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله. ثم يظهر أقوام يقرءون القرآن، يقولون: من أقرأ منّا؟ من أعلم منّا؟ من أفقه منّا؟ ثم قال: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك وقود النار)). رواه البزار بسند لا بأس به.

١٤٢ – وللطبراني معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال المنذري: إسناده حسن.

****

قال رحمه الله تعالى: «**بابٌ الدَّعوى في العلم افتخارًا**» ؛ الدَّعوى في العلم: أي يدَّعي العلم لنفسه على وجه الافتخار والتَّعالي على النَّاس وأنَّه لا أفقه منه وأنَّه لا أعلم منه؛ افتخارًا وتعاليًا على عباد الله تبارك وتعالى. أمَّا إذا ادَّعى العلم في موقفٍ ما؛ نصحًا للعباد وطلبًا لتعليمهم، كأن يعرض أمرًا من الأمور الَّتي يحتاج فيها النَّاس إلى مَن يبيِّن لهم فيقول: أنا عندي علم في هذه المسألة، قرأت كذا، قرأت كذا، يريد أن يطمئنَّ النَّاس إلى ما سيبيِّنه لهم من علم فهذا لا بأس به، ومن ذلكم قول يوسف عليه السَّلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. لكن مَن يدَّعي العلم لنفسه على سبيل الافتخار، سواءً كان عنده علم أو ليس عنده علم ، يدَّعي ذلك لنفسه على سبيل الافتخار والتَّعالي على النَّاس فهذا من العظائم ، وفيه هذا الحديث.

حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا: ((**يظهر الإسلام حتى تختلف التُّجَّار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله**)) يظهر الإسلام: أي ينتشر في الأرض وتمتدّ مساحته، ويكثر دخول النَّاس فيه، ويزداد عدد المناطق والبِقاع الَّتي تدخل في الإسلام، ويكثُر خروج المجاهدين والغُزاة لإعلاء كلمةِ الله تبارك وتعالى ولتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا.

((**ثمَّ يظهر أقوامٌ يقرؤون القرآن**)) ؛ يقرؤون القرآن: أي يجيدون قراءته، يتقنون قراءته، يتقنون ضبط حروفه.

((**يقولون: مَن أقرأ منَّا؟**)) على وجه الافتخار ((**يقولون: مَن أقرأ منَّا؟ مَن أعلم منَّا؟ مَن أفقه منَّا؟**))، فيكون حظُّهم ونصيبهم من هذه القراءة ليس التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، لأنَّ حفظ القرآن والعناية به هذه من أعظم القُرب، فإذا كان الغرض من هذه القربة عند مَن قرأ القرآن الافتخار والتَّعالي لم تدخل في القُرب، ولم يكن فيها الإخلاص، فلم تكن من عمل الإنسان ، حتى لو حفظ القرآن كلَّه. وفي صحيح مسلم: أنَّ من الثلاثة الذين هم أوَّل مَن تُسَعَّر بهم النَّار يوم القيامة: ((رجلٌ حفظ القرآن ليُقال حافظ، وتعلَّم العلم ليُقال عالم، فيُؤخذ به ويُلقى في النار)) ، حفظ وتعلَّم. فهؤلاء يقرؤون القرآن، والمراد بـ «يقرؤون» أي يتقنون قراءته، ولكن غرضهم إظهار النَّفس، وإبراز النَّفس، والتَّعالي على الآخرين، والافتخار على عباد الله.

((**يقولون: مَن أقرأ منَّا؟ مَن أعلم منَّا؟ مَن أفقه منَّا؟**)) والاستفهام هنا إنكاري، أي: لا أحد أفقه منَّا، ولا أحد أعلم منَّا، ولا أحد أفقه منَّا، نحن الأفقه والأقرأ والأعلم، يقولون ذلك؛ افتخارًا وتعاليًا على عباد الله.

ثمّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**هل في أولئك من خير؟**))، **قالوا**: «**الله ورسوله أعلم**» **قال**: ((**أُولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النَّار**)) ؛ لأن القرآن لا يُحفظ من أجل التفاخر على الناس والتعالي، والعلم لا يُتعلم من أجل التفاخر على الناس والتعالي عليهم، وأن يقول القارئ: أنا الأقرأ وأنا الأعلم وأنا الأفقه ، وإنما يقرأ القرآن ليخضع لله وليذل بين يدي الله، وليحسن التقرب بتلاوة هذا القرآن والعمل به لله سبحانه وتعالى، فيكون من أهل هذا القرآن حقًا وصدقًا ، أما أن يقرأ القرآن ويجيد قراءته ليقال قارئ، أو ليقال عالم، أو ليقال حافظ، أو نحو ذلك، فهذا فيه هذا الوعيد.

قال: ((**وأولئك هم وقود النَّار**)) ؛ وهذا معناه أن بعض الناس يأتي يوم القيامة حافظًا للقرآن، متقنًا في حفظه ويكون وقودًا للنَّار ويكون من أوَّل مَن تُسَعَّر به النَّار؛ لأنَّ هذا العمل العظيم لم يجعله لله، وإنَّما جعله للتَّفاخر على عباد الله والتَّعالي على النَّاس، ولأن يقول: أنا الكذا وأنا الكذا.. إلخ، فهذا من أخطر ما يكون على مَن فعل ذلك ، وأيضًا فيه بيان أهمِيَّة الإخلاص وأنَّه الأساس في قَبول الأعمال، وأنَّ الله جلَّ في عُلاه لا يقبل من العمل مهما عَظُم ومهما علا شأنه إلاّ إذا أُخْلِصَ لله. انظر هنا: كم يحتاج حفظ القرآن وإتقان ضبطه من وقت؟! هذا عمل كبير جدًّا ويحتاج من صاحبه إلى وقت حتى يضبطه، ثمّ يكون هذا الجهد الكبير لا يُقبَل منه، بل يكون من وَقود النَّار، لا لشيء إلّا لأنَّه لم يقصد بهذا العمل التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، وإنَّما قصد به المراءة أو الشُّهرة أو

إبراز النَّفس، أو محمدة النَّاس؛ لأن يقول: أنا قارئ، أنا حافظ، أنا متقن ، إلى غير ذلك من الألقاب الَّتي يطلبها لنفسه ويقصِدها بحفظه.

وأيضًا تكون حال أمثال هؤلاء بعيدة عن العمل الذي هو مقصود القرآن، يقول الحسن البصري رحمه الله: «أُنْزِلَ القرآن ليُعْمَلَ به، فاتَّخذ النَّاس قراءته عملاً»، فيكون بعيد عن العمل، منشغل بغروره بنفسه وعُجبه بها عن العمل بالقرآن والتَّفقُّه لأحكام القرآن والعمل بها، وهذا من أخطر ما يكون أيضًا على الإنسان. وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى يتحدَّث عن بعض القُرّاء في زمانه، زمان التّابعين ذلك الزّمان الفاضل يتحدّث عن بعض القرّاء في زمانه قال: «يقول أحدهم: قرأت القرآن كلَّه، فلم أُسقط منه حرفًا»، يقول بعضهم على سبيل الافتخار وإظهار النَّفس: "قرأت القرآن كلَّه ولم أُسقط منه حرفًا"، معنى «لم أُسقط منه حرفًا» أي: لم أقع في خطأ من إتقانه للحفظ، قال الحسن البصري: «وقد أسقطه والله كلَّه، لا يُرى عليه القرآن لا في خُلُق ولا في عمل»، إن نظر الإنسان في أخلاق القرآن وإذا بها ليست موجودةً فيه، وإذا نظر إلى أعمال القرآن وإذا بها ليست موجودةً فيه. قال رحمه الله تعالى: «فما هؤلاء بالقُرّاء ولا العلماء ولا الوَرَعة، إذا كانت القرّاء مثل هؤلاء لا كثَّر الله في النَّاس مثل هؤلاء».

فالشّاهد أنَّ الأمر غاية في الخطورة؛ أن يكون حظ الإنسان من القرآن وحفظه وضبطه مجرّد الدعوى والافتخار والعُجب بالنَّفس، وإظهار النَّفس على الآخرين والتَّعالي عليهم، وأنَّ هذا من عظائم الذُّنوب.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ذكر جحود النعمة

١٤٣ – في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((دخلتُ النار فرأيت أكثر أهلها النساء، يكفرن))، قيل : «يكفرن بالله؟» قال : ((لا، يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت، ما رأيت منك خيرا قط)) .

****

قال: «**بابٌ ذكرُ جحود النِّعمة**» ؛ جحودها: أي إنكارها، وعدم الاعتراف بها، وعدم شكر المنعِم.

قال: في الصَّحيح عن ابن عبَّاسٍ مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**دخلْتُ النَّارَ فرأيْتُ أكثر أهلها النِّساء**))؛ لفظ البخاري: ((أُريتُ النَّار))، ولفظ مسلم: ((رأيتُ النَّار)) ، ولعلَّ هذا وقع تصحيفًا.

((**رأيتُ النّار، فرأيتُ أكثر أهلها النِّساء؛ يَكْفُرْنَ**)) هكذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: ((يَكْفُرْنَ)) ،«قيل: يكفُرْنَ بالله؟»

قال ((**رأيت أكثر أهلها النِّساء**)) يعني أكثر أهل النار النِّساء، فالنِّساء في النّار أكثر من الرِّجال.

قال: ((**يَكْفُرْن**)) يعني: هذا السَّبب في هذه الكثرة في الدُّخول، سبب هذه الكلمة أنَّهنَّ يكفُرْنَ.

((**قيل: باللَّه؟**)) يكفرن باللَّه؟ والكفر باللَّه سبحانه وتعالى كفر ناقل من المِلَّة مُوجِب للخلود في نار جهنَّم.

قال: ((**لا، يكْفُرْنَ العَشير، ويكفرْنَ الإحسان**)) أي: يكْفُرْنَ المنعِمين، يكفرْن إحسان مَن ينعم عليهن، مَن يعمل على إكرامهنّ والإحسان إليهن، كأن يكون الزّوج مع زوجه محسنًا، وفَّر مسكنًا تكلَّف في توفيره، وفَّر أيضًا أثاثًا وفراشًا ولباسًا وطعامًا وغذاءً وشرابًا وأجهد نفسه في ذلك، وفّر هذه الأشياء، وهذا كلُّه إحسان يُشْكَر ولا يُكْفَر، ويُذْكَر للمحسن المنعِم ولا يُجْحَد.

قال: ((**يَكْفُرْنَ، قيل: يكفرْنَ باللَّه؟ قال: لا، يكفُرْنَ العشير، ويكفُرْنَ الإحسان**)) ؛ العشير: الزّوج، يحسن إليها ويكرمها ويوفِّر لها من الأمور والحاجيَّات.

يقول: ((**لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر**)) معنى قوله «الدَّهر» أي: مدَّة حياتك واتِّصالك بها.

((**لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر ثمّ رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**)) يقدِّم لها منذ الاتِّصال بينه وبينها، منذ أن كانت زوجًا له وهو يحسِن إليها ويكرمها، هذا المسكن، وهذا البيت، وهذا الفراش، وهذا الطّعام يوميًّا يستجلبه للبيت ويوفِّره في البيت، وهذا وهذا من الأمور الكثيرة الَّتي يقدِّمها، فإذا احتاجت أمرًا معيَّنًا تعلَّقت نفسها به ورغبت في تحصيله وامتنع الزّوج إمّا لعدم قدرته عليه، أو لعدم رؤيته لأهميَّته أو لضرورة إتيانها به، ولا يلزمه أن يوفِّر لها كلّ ما تطلب، لا يلزمه ذلك ما دام وفّر لها الضَّروريَّات والحاجيّات المهمَّة، فإذا طلبت شيئًا معيَّنًا تعلَّقت نفسها به وامتنع جحدت معروفه السّابق كلَّه وقالت عنه –سواءً في وجهه أو عند الآخرين– قالت: هذا بخيل، وهذا فيه كذا، هذا الرِّيال ما يخرجه، والدِّرهم ما ينفقه، ويقتِّر على أهله، وهو كلّ يوم يأتي لأهله بالطّعام، ويأتي لهم بالشَّراب، ويأتي لهم بالغذاء، والملابس متوفرة، والأشياء متوفِّرة، لكن إذا قصَّر في شيء معيَّن وألحَّت عليه وامتنع، جحدت إحسانه كلَّه!! والنَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم رآهنَّ في النّار بسبب هذا الأمر .

ولهذا يجب على المرأة أن تخاف اللَّه وأن تخشاه، هذا وعيد، ورؤيَتُهنَّ في النَّار هذا دليل على أنَّ هذا الصَّنيع منهنَّ كبيرة ؛ لأنَّه لا يأتي وعيدٌ بالنَّار إلاّ في الكبائر، فجحْد المرأة لإحسان الزّوج، إحسان العشير، إحسان المنعمين .. هذا من العظائم، الواجب على الإنسان أن يشكر إحسان مَن أحسن إليه، لا أن يكون لئيمًا، يحسِن إليها الدَّهر كلَّه بأنواعٍ من الإحسان ثمّ عند أمرٍ ما تريده فلا يتحقّق تجحد ذلك الإحسان كلَّه! هذا من العظائم. ولهذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام لما ذكر أنَّه رأى النّار ورأى أكثر أهلها النِّساء، أخبر عليه الصَّلاة والسَّلام أنهنَّ يكْفُرْنَ، أي: يكفُرْنَ العشير.

ورؤيته عليه الصَّلاةُ والسَّلام للنَّار كانت رؤية عجيبة ، كما تعلمون حصلت هذه الرُّؤية وهو يصلِّي بالنّاس صلاة الكسوف، رأى الجنَّة ورأى النَّار، وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلام في حياته صلَّى الكسوف مرَّة واحدة، حصل الكسوف في حياته مرَّةً واحدة، ونودِيَ بالنَّاس: «الصَّلاة جامعة»، اجتمع النَّاس وتقدَّم عليه الصَّلاةُ والسَّلام

وصلَّى بهم وأطال في صلاته، ورآه الصّحابة رضي الله عنهم فعل شيئًا في تلك الصَّلاة ما كان يفعله ؛ رأوه يتقدَّم وقد مدّ يده كأنَّه يريد أن يأخذ شيئًا ، ما قد فعل هذا في صلاته، ثمّ رأوه بعدها بقليل رجع كأنَّه خائف من شيء صلوات الله وسلامه عليه ، فسألوه عن ذلك قال: ((رأيت الجنَّة ورأيت النَّار))، الصحابة رضي الله عنهم صفوف خلفه ما رأوا شيئًا، وهذا من الدَّلائل والدَّلائل على أنَّ الله على كلِّ شيء قدير سبحانه وتعالى، النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمامهم ويرى الجنَّة والنَّار، ورأى في النَّار أصنافًا ممَّن يُعَذَّبون : رأى عمرو بن لُحَيّ الّذي جلب الشِّرك، ورأى في النّار المرأة الّتي حبست الهرَّة لا أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض ، رآها النّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في تلك الوقفة وهي تُعَذَّب في النَّار، ورأى أيضًا في تلك الوقفة الرَّجل الّذي كان يسرق الحجيج، رآه في النّار عليه الصَّلاة والسَّلام ، رجل كان يسرق الحجيج، معه مِحْجَن، والمحجن: العصا الَّتي في أعلاها عَكفة، فكان يمشي ومعه المِحْجن وإذا مرَّ حاجٌّ معه بعير وعليه بعض المتاع، إذا تجاوزه أخذ بعض المتاع بالمِحْجَن وسحبه، فإن انتبه له الحاجّ قال: المعذرة، تعلَّق بمحجني ما انتبهت، وإذا لم ينتبه له أخذه، رآه النّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وهو في النَّار يُعَذَّب، ورأى عليه الصَّلاةُ والسَّلام النِّساء، وأنَّ أكثر أهل النَّار النِّساء، وأخبر أنهنَّ يكفُرْن، أي: يكْفُرْنَ العشير .

وأيضًا في وقفته تلك حذّر عليه الصَّلاةُ والسَّلام من الزِّنا ؛ فجمع في تلك الوقفة وما أخبر عليه الصَّلاةُ والسَّلام أنَّه رأى المعذَّبين في النَّار، جمع في تلك الوقفة بين الذُّنوب الأربعة الَّتي هي أكبر الذُّنوب، والَّتي جمعها في خطبةٍ من خطبه في حجَّة الوداع بقوله: ((أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا)) ، هذه الذّنوب الأربعة هي أعظم الذُّنوب ، وفي وقفته تلك في صلاة الكسوف جمع التَّحذير والإنذار من هذه الذُّنوب بطريقة مختلفة عن كلّ مرَّة كان ينذر فيها من هذه الذُّنوب؛ لأنَّه كان يُخْبِر عن رؤيته بعينه لمن يُعَذَّبون بسبب هذه الموبقات وسبب هذه العظائم ، وهذا أيضًا من أقوى ما يكون في خوف الإنسان؛ لأنَّ النّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم رآه في النَّار يعذَّب مَن يعمل هذه الأمور ويرتكب هذه الآثام.

فهذا الحديث من أعظم ما يكون تخويفًا للنِّساء وزجْرًا لهنَّ عن كفران المنعِمين وجحد إنعام الأزواج وإحسان الأزواج، وأنَّ هذا أمرٌ موجب لدخول النَّار، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى أكثر أهل النَّار النِّساء، وأخبر أنَّ ذلك بسبب كفران العشير وجحود النِّعمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٤٤ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله)) صححه الترمذي وقال حسن غريب .

****

قال: **عن أبي هريرة مرفوعًا: ((مَن لا يشكرُ النَّاسَ لا يشكرُ اللَّه)) صحَّحه التِّرمذي، وقال حسنٌ غريب** ؛ «حسنٌ غريب» يظهر واللَّه تعالى أعلم أنَّها تتعلَّق بالحديث الّذي بعده، والأمر مثل ما قال هنا: «صحّحه التِّرمذي»، وأما «حسنٌ غريب» لا تتعلَّق بهذا الحديث، ولعلَّها متعلِّقة بالحديث الّذي قبله. وقد يكون هذا وقع من بعض النُّسَّاخ فقدَّم ما حقُّه أن يُؤخَّر في الحديث الّذي بعده، وإلاّ فهذا الحديث مثل ما قال رحمه اللَّه تعالى: «صحّحه التِّرمذي»، لأنَّ «صحّحه التِّرمذي» لا يجتمع معها قوله «وقال: حسنٌ غريب»، فهذه «وقال: حسنٌ غريب» لا تتعلق بهذا الحديث، وإنما تعلقها والله تعالى أعلم بالحديث الذي بعده، حديث جابر.

قال: ((**مَن لا يشكر النَّاس لا يشكر اللَّه**)) لأنَّ اللَّه عزّ وجلّ أمر بشكر النَّاس ، وجاء في ذلك الأحاديث عن رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وأنَّ مَن أُحْسِنَ إليه ينبغي أن يشكرَ المحسِن، يشكره على إحسانه. وشكر هذا المحسن على إحسانه من شكر اللَّه؛ لأنَّه لا يشكر اللَّه مَن لا يشكر النَّاس ، لماذا؟ لأنَّ اللَّه سبحانه وتعالى جعله سببًا لوصول هذه النِّعمة إلى هذا الإنسان أو إلى هذا الشَّخص، فهذا الّذي جعله اللَّه سببًا شُكرُه على ما بذل وما قدَّم من أجل وصول هذه النِّعمة إلى هذا الشَّخص يُشكَر عليه، وشكره من شكر اللَّه سبحانه وتعالى، والأمر كما في الحديث ((مَن لا يشكر النَّاس لا يشكر اللَّه)).

قال رحمه الله تعالى :

١٤٥ – وعن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: ((من أعطي عطاء فوجد فليجْزِ به ، ومن لم يجد فليثن به، فإن الثناء شكر، فإن أثنى فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره)).

****

قال: وعن جابر رضي اللَّه عنه مرفوعًا ((**مَن أُعْطِيَ عطاءً فليَجْزِ به إن وجد**)) يعني: إن أعطاه أحد عطاءً فلْيَجْزِ به: أي ليكافئه على ما أعطاه، بمثله أو يزيد بأحسن منه ، «إن وجد» إن كان عنده قدرة على ذلك ويجد ما يكافئه به بالمثل أو بالأحسن.

((**ومَن لم يجد فليُثْن به، فإنَّ الثَّناء شكرٌ، فإن أثنى فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره**)) ؛ فَلْيُثْنِ به: أي يذكره بالخير، يدعو له بالخير . ومِن أبلغ ما يكون دعاءً في هذا الباب: ما جاء في الحديث أن يقول: «جزاه اللَّه خيرًا» أو «جزاك اللَّه خيرًا»، يدعو له، ويثني عليه خيرًا، أمّا إذا جحد النِّعمة وأنكرها فهذا كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام ((ومَن كتمه فقد كفره)).

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.